ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

« جعل » تعنى بَيَّنَ ووضَّح ، فقال:إن الكعبة محرمة ولها كرامة تستحق من المؤمن أن يأمن فيها . أو « جعل » تعنى إيجاد صفات للأشياء بعد أن تكون ذات المادة موجودة ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

أى أنه سبحانه خصص جزءا من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءا آخر ليكون أذناً ، وجزءا ثالثاً ليكون لساناً . والحق هنا يقول : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » . ونعرف أن كل الأسماء للمعنويات مأخوذة من المُحسات .

والكعب هو الشيء الناتىء الخارج عن حد المتساوى . ومثال ذلك الكعب فى القدم يكون مرتفعاً . وكذلك الفتاة نطلق عليها : « طفلة » وهى دون البلوغ ، وعند البلوغ وظهور الثديين نقول إنها : «كَعَاب وكاعب » ، أى أن ثدييها قد صارا مرتفعين ، والكعبة نتوء ، والنتوء ارتفاع ، وهذا الارتفاع هو علامة البيت ، فالبيت هو مساحة من الأرض ، أما الارتفاع فهو يحدد الحجم .

ومثال ذلك عندما نريد حساب مساحة الأرض ؛ نقيس الطول والعرض ، ونضرب الطول فى العرض حتى نحسب المساحة . أما إذا كان هناك ارتفاع فهذا يعنى الانتقال من المساحة إلى الحجم . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة البقرة)

أى أن سيدنا إبراهيم بعمله إنما أراد أن يصنع للبيت ارتفاعاً وحجماً ، وهذا البناء يدل على صناعة حجم لمساحة من الأرض . إذن فالكعبة هى البيت بعد أن صار له ارتفاع . وكلمة « بيت » تعنى المكان الذى أعد للبيتوتة ، فالإنسان يضرب فى الأرض طيلة نهاره وعندما يجب أن يستريح يذهب إلى البيت .

فالله جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كدحهم لأنه بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت الله ولكن باختيار خلق الله ، أما الكعبة فهى بيت الله باختيار الله ، وهى قبلة لبيوت الله التى قامت باختيار خلق الله .

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » وكلمة « البيت الحرام » تدل على أن له حرمات كثيرة . وجعل الله الكعبة بيتاً حراماً لكل المسلمين قياماً . والقيام هو الوقوف ، والوقوف هو القيام على الأمر . والقائم على أمرٍ ما يحفظ له قوام حياته ووجوده .

وهكذا نفهم أنه سبحانه أراد أن تكون الكعبة هى البيت الحرام ليحفظ على الناس قوام حياتهم ، بالطعام والشراب واستبقاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين ، ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر ، وتبدأ بوجود الروح فى المادة فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المضار ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته فى الآخرة ، فلا تنتهى منه الحياة أبداً .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . أى قواماً لحياتهم سواءً الحياة الدنيا أو حياة الآخرة ، الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، والحياة التى تبدأ بالآخرة . والحق سبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هكذا يكون الإيمان بالله وصلاً لحياتين : الحياة المادية فى الدنيا ، وحياة الآخرة . وأراد الحق بذلك دفع الأذى وجلب النفع والجاه والسيطرة للمؤمنين ، ونعرف أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كذلك نعرف أن إبراهيم عليه السلام هو الذى أقام القواعد من البيت ، أما البيت نفسه فقد أقيم من قبل ذلك . ومادام الحق سبحانه قد قال :

﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة آل عمران)

فمعنى ذلك أن الله لم يحرم الناس من قبل إبراهيم أن يكون لهم بيت . فالناس معناها البشر من آدم إلى أن تقوم الساعة ، وأقام إبراهيم خليل الرحمن البُعْد الثالث وهو رفع القواعد للبيت الحرام . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

أى أن الحق سبحانه وتعالى أظهر مكان البيت لإبراهيم عليه السلام ، ونعرف أن إبراهيم أشرك ابنه إسماعيل فى إقامة القواعد من البيت ، ونعلم أن إسماعيل قد جاء إلى هذا المكان رضيعاً مع أمه ، وقال إبراهيم بعد أن رفع القواعد متوجها إلى ربه بالدعاء :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد عرف إبراهيم مكان البيت وأنه بوادٍ غير ذى زرع ، لا ماء فيه ولا نبات . وجاء الحق بهذه الكناية لنعرف أنه لا حياة بدون زرع ، والماء لازم للزرع . وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد لبى نداء الله بأن يأتى إلى مكان ليس به أى نعمة تقيم الحياة ، ولا يوجد فيه إلا المنعم ، ولذلك نرى سيدتنا هاجر عليها السلام عندما تتلقى الأمر من إبراهيم بالسكن مع ابنها فى ذلك المكان تناديه : يا إبراهيم إلى من تركتنا ؟ فيقول

لها : إلى الله تقول : رضيت بالله . هنا تركته سيدتنا هاجر ليمشى كما أراد، فالله لن يضيعها لا هى ولا ابنها ؛ لأنها قالت : رضيت بالله .

وقص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علينا قصتها، والسعى الذى قامت به بين الصفا والمروة، وكيف كانت ثقتها فى أن الخالق الأكرم لن يضيعها لا هى ولا ابنها، بل سيرزقهما، فتسعى بين الصفا والمروة لعلها تجد طيراً يدلها على موقع للماء، وتعود إلى المروة لعلها تجد قافلة تسير . إنها تأخذ بالأسباب مع علمها أنها فى صحبة المسبب الأعظم . وسعت سبعة أشواط . وهى الأنثى وفى تلك السن، وذلك من لهفتها على توفير شربة ماء لطفلها .

السعى ـ كما نعرفه ـ عملية شاقة . ولو أن الله أعطاها الماء على الصفا أو على المروة لما أثبت كلمتها : « إن الله لا يضيعنا » . ولكن الحق يعطيها الماء عند قدمى طفلها الرضيع . وبذلك لها يكون سبحانه قد نبهنا وأرشدنا إلى قضيتين : أما الأولى فإن الإنسان يلزمه أن يسعى على قدر جهده، وأما الثانية فهى أن السعى لا يعطى بمفرده الثمرة، ولكن الثمرة يعطيها الله . وجعل الله من السعى بين الصفا والمروة تعليماً لنا بدرس عملى تطبيقى أن نأخذ بالأسباب ولا ننسى المسبب ؛ لأن فتنة الناس تأتى من الغرور بالأسباب .

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ (سورة العلق)

إنه لا يصح أبداً أن تعزلك الأسباب عن المسبب، ولا تقل سأبقى مع المسبب إلى أن تأتينى الأسباب، لا ، كُنْ دائماً مع الأسباب، وتذكر دائماً المسبب . ولذلك نقول: إن الجوارح تعمل، ولكن القلوب تتوكل . وهذا هو المغزى من عطاء الحق سبحانه الماء لهاجر عند قدمى ابنها، وبذلك تستجاب دعوة إبراهيم التى دعا بها الله :

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ ﴾ (سورة إبراهيم)

لقد دعا إبراهيم عليه السلام بالرزق من الثمرات ، لأن الوادى غير ذى زرع . ولذلك جعل الحق أفئدة الناس تهوى إلى الكعبة وإلى البيت الحرام . يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٥٧ سورة القصص)

وكلمة « يُجبى » تدلنا على أن الناس لا تأتى بهذه الثمرات اختياراً إلى البيت الحرام الذى جعله الله قياماً لحياة من يوجد فيه ، بل يأتون بالثمرات قهراً .

وهناك أناس لهم مزارع كبيرة وحدائق وفيرة الثمار فى الطائف وفى غيرها من البلاد ، وعندما يريد إنسان الشراء من نتاج مزارعهم يقولون له : إنه مخصص لمكة فإن أردت شراءه فاذهب إلى مكة .

لقد استجاب الحق لدعاء إبراهيم : (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) . و« تهوى » ـ بكسر الواو ـ تدل على السقوط من حالق . . أى من مكان مرتفع شاهق . وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها . ولذلك نجد الكَلِف بالحج ـ المحب له والمتعلق به ـ تشتاق روحه إلى الحج .

وعلينا أن نفرق بين « يَهْوَى » . . أى يحب الذهاب ، و« يَهوِى » بكسر الواو أى يذهب بالاندفاع ، فالإنسان إن سقط من مكان عالٍ لا يستطيع أن يقول : سأتوقف عند نقطةٍ ما فى منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذى يقع من مكان لا يقدر على أن يمسك نفسه . ولذلك قال الحق :

﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وهذا دليل على أن الهَوىَ ليس من صنعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأفئدة . والأفئدة بيد الله ـ سبحانه ـ هو الذى جعلها تهوِى ، والكعبة هى البيت الحرام ، وهى قوام لحياة الناس ، وسبحانه القائل :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالداخل إلى الكعبة آمن حتى ولو كان قاتلاً . وكان الرجل يلتقى بقاتل أبيه فى الكعبة فلا يتعرض له ، إذن فقد أعطى الحق لهم من مقومات الحياة الشيء النافع وحجب عن الموجود منهم الضر .

وأما السيادة والجاه فقد عرفنا أن قريشاً سادت العرب وكان رجالها سدنة وخدماً لبيت الله ، والكل يأتى إليهم فلا أحد يتعرض لقوافلهم الذاهبة إلى الشام أو اليمن . وإلا فمن يتعرض لقوافل قريش فإن قريشاً تستطيع الانتقام منه عندما يأتى إليها . وكان ذلك قمة السيادة . إذن فمقوم الحياة إما أن يأتى بنافع كالرزق ، وإما أن يمنع الضار ؛ وذلك بالأمن الذى يصيب كل داخل إليها ، وكذلك بالسيادة التى أخذتها قريش على العرب جميعاً . وأعطى الله المثل لقريش على حمايته للكعبة ، عندما جاء أبرهة ليهدم الكعبة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ① ﴾

(سورة الفيل)

ورد سبحانه كيد أصحاب الفيل ؛ لأنهم لو هدموا الكعبة لضاعت السيادة من قريش ، ولذلك قال الحق وصفاً لذلك :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ⑤ ﴾ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ② ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ ، ٢ سورة قريش)

جعل الحق أصحاب الفيل كعصف مأكول أى كتبن أو نحوه أكلته الدواب وألقته رَوْثا ، فعل ـ سبحانه ـ ذلك حتى تألف قريش وتطمئن إلى أن الكعبة لن يمسها سوء ، وإلى أن رحلات الشتاء والصيف مصونة بحكم حاجة كل القبائل إلى الحج . وقال سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ④ ﴾

(سورة قريش)

أى أسبغ عليهم النعمة بالطعام وسلبهم المضرة بالخوف ، وأبقى لهم السيادة والجاه بخدمة الكعبة التى جعلها الله للناس جميعاً قياما وأمنًا ؛ لأن الذين يذهبون إلى حج البيت يُكفر عنهم سبحانه سيئاتهم ويخرجون من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهذا قيام لحياتهم الأخروية أيضاً .

إذن جعل الله البيت الحرام قياماً لكل ألوان الحياة ، والبيت الحرام مكان كما نعلم . وجعل الحق الشهر الحرام أيضاً قياماً للحياة ، والشهر الحرام هو زمان كما نعلم . والشهر الحرام هو أحد الأشهر الحرم الأربعة ؛ شهر منها فرد أى غير متصل بغيره من الأشهر الحرم وهو رجب ـ ولذلك يسمى رجب الفرد ـ وثلاثة سرد أى متتابعة يلى بعضها بعضا وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والمراد بالشهر الحرام هو الجنس لكل شهر من الأشهر الحرم .

ونعلم أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى فاعل . والفاعل يحتاج إلى زمن ليفعل فيه الفعل ، وإلى مكان يفعل فيه ، وإلى سبب يدعو إلى الفعل ، وإلى قدرة تبرز هذا الفعل . ولذلك نذكر جميعاً قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(سورة الكهف)

فإياك أن تقول : إنى فاعل ذلك غداً إلا بعد أن تتبعها بقولك : « إن شاء الله » . ولا يمنعنا هذا أن نخطط لمستقبلنا . فمادمنا قد استعنا بالمشيئة ، فلنا أن نخطط لحياتنا . ونقول : « إن شاء الله » لأن عناصر الفعل : فاعل ، ومفعول يقع عليه الفعل ، وزمان ، ومكان ، وسبب ، وقدرة تبرز الفعل . ولا أحد منا يملك واحداً من هذه العناصر ، فأنت أيها الإنسان لا تملك وجود ذاتك غداً ، ولا تملك وجود المفعول غداً ، ولا تملك الزمان ، ولا تملك المكان ، ولا تملك السبب ؛ لأنه من الجائز أن يتغير ، ولا تملك القدرة على الفعل ، فقد تسلب منك القدرة قبل أن تفعل الفعل .

إذن ، فأنت لا تملك من عناصر الفعل شيئاً . فلا تجازف وتقول : أنا أفعل ذلك غداً . بل أسندها إلى من يملك كل العناصر ، وقل : « إن شاء الله » ، وبذلك لا تكون كاذباً .

وهنا في هذه الآية يوجد عنصران : المكان ، الزمان ، المكان هو البيت الحرام ، والزمان هو الشهر الحرام ، والذى يحدث الفعل فيه نسميه : المفعول فيه ، وهو إما ظرف مكان وإما ظرف زمان . وأراد الحق سبحانه بذلك أن يؤكد ما فيه قيام الناس زمانا ومكانا ، فلو أنه سبحانه لم يفعل ذلك بالنسبة للزمان وهو الأشهر الحرم ، والمكان وهو الحرم ، لاستمرت الحرب بين قبائل العرب إلى ما لا نهاية . ولذلك أراد بالأشهر الحرم أن يعطى للعقل فرصة للتأمل في أسباب الحرب ، ويعطى كل إنسان من العرب الراحة من القتال . وكان كل عربى في ذلك الزمن يهتم بالاستعداد للقتال اهتمامه بالطعام والشراب ، فكل منهم تربى على الفروسية والقتال والضرب بالرمح والمبارزة بالسيف .

وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لينساح بالدعوة في أرض الله صحب معه الكثير من الرجال الذين لم يكونوا في حاجة إلى التدريب على أعمال الحرب ، فقد كان كل الناس تقريباً جاهزين للقتال . وكأن الله سبحانه أراد للإسلام أن ينهى الثأر بين القبائل ، وأن يستفيد الإسلام من استعداد كل عربى للقتال . واستفاد الإسلام أيضاً من أن أمة العرب كانت ـ غالباً ـ متبدية ؛ بيت كل إنسان منهم على ظهر البعير ، يشد رحاله ، وينصب خيمته وينام ؛ لأن الناس إنما ارتبطوا بالأوطان عندما بنوا المنازل ، فمن بنى لنفسه بيتاً في مكان ما فهو يشتاق إلى ما بناه .

وكأن الحق قد أعدهم للانسياح بكلمة الله في الأرض فلا يحزن لترك مكان إلى مكان آخر ، بل إن الشخص منهم كان يذهب إلى البلاد ويتوطن فيها ليؤصل الوجود الإسلامى . فكان كل واحد منهم نواة الخير للأمم التى انساحوا إليها ؛ فمن ذهب منهم إلى الشام توطن فيها ولم يصعب عليه فراق الجزيرة . وكذلك من ذهب إلى مصر وغيرها من البلدان .

إذن فقد أراد الحق بحرمة الأشهر الحرم والبيت الحرام أن يرتاح العرب من القتال بدلاً من أن تهلك الحربُ الحرثَ والنسلَ ، وأراد الحق ذلك قياماً للناس ، واستبقاءً للنوع .

وكذلك حرم الله : « الهدى والقلائد » والهدى هو الذى يُهْدَى للحرم فيأكله

الناس هناك ، ذلك لأن الحرم موجود بوادٍ غير ذى زرع . والهدى هو البهيمة التى يتطوع بها أى إنسان ويضع حول عنقها قلادة من لِحاء وقشر الشجر أو غير ذلك ، وعندما يرى الناس القلادة يعرفون أن تلك البهيمة مهداة للحرم فلا يقربها أحد حتى صاحبها وإن قرصه وعضه الجوع ، وفى ذلك قيام للناس .

وتتابع الآية : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » ، و« ذلك » تشير إلى الأمور التى تقدمت كلها ، و« لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » أى أنه مدبر لهم ما يحفظ حياتهم فى كل حال من أغيار الحياة ؛ فقد رتب سبحانه لهم حفظ الأرواح ، وحفظهم من الجوع ، وأمنهم ، وحفظ لهم السيادة ، كل ذلك بتدبيره وهو الحكيم . لقد دبر كل شىء أزلاً ، وأتت الأمور على وَفْق ما دبر من خير ومصلحة ، فإذا كان كل ذلك قد فعله سبحانه وتعالى فلأنه الأعلم والأحكم .

وقد حدث كل ذلك بعلمه وحكمته ، ونؤمن أن ما لا نعرفه قد فعله وصنعه - أيضاً - بهذه الحكمة المطلقة وذلك العلم المطلق . « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » لقد رتب حياة الناس فى الجزيرة وحول البيت الحرام على الرغم من أنهم قبل الرسالة كانوا يعبدون الأصنام ، ولكنه هداهم بالرسالة المحمدية . ولذلك قال : « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » فسبحانه جعل البيت أمنا وأماناً ، وهذا إخبار شرعى لا إخبار كونى .

والفرق بين الإخبار الكونى والإخبار الشرعى أن الإخبار الكونى لا بد أن يحدث لأنه لا دخل للناس به ، أما الإخبار الشرعى فهو أمر يجب أن يقوم الناس بتنفيذه ، فإن أطاع الناس الخبر القادم من الله جعلوا البيت آمنا ، وإن أساءوا جعلوه غير آمن .

وفى زماننا القريب عندما اعتدى شاب يدعى جهيمان على الحرم ، تساءل الناس : كيف يعتدى إنسان على الحرم وقد أراده الله حرماً آمناً ؟ وقلنا : إن أمر الله بجعل البيت حرماً آمنا هو أمر شرعى ينفذه المؤمنون إن أطاعوا ، وإن لم ينفذوه فهم غير مؤمنين . والمثال على الأمر الشرعى والكونى قوله الحق :

﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ (من الآية ٢٦ سورة النور)

إننا نجد فى الحياة خبيثاً يتزوج امرأة طيبة ، ونجد طيباً يتزوج خبيثة . وهذا يثبت لنا أن قوله الحق : « والطيبات للطيبين » هو أمر شرعى بأن نزوج الطيب طيبة مثله ، وهو واجب التنفيذ إن كنا مؤمنين بالمنهج ، أما إن خالفنا المنهج فإننا نزوج الطيب خبيثة والطيبة خبيثاً ، وبذلك يختل التكافؤ فى الأسرة ، وتصير حياة المجتمع جحيماً ، ومن أجل أن نحفظ للمجتمع توازنه علينا أن نزوج الطيب للطيبة وأن نترك الخبيثة للخبيث ، حتى لا تكون حياتنا فى فتنة . وينبهنا سبحانه إلى ضرورة مراعاة أوامره الشرعية فيقول لنا سبحانه :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

أى تيقظوا لأحكام الله ، وكونوا طوع ما يريد ، فمن يخالف الله فعليه أن يعرف أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب . ومن كان يطيع الله فليعلم أنه سبحانه غفور رحيم . وجاء سبحانه بصفة من صفات الجلال لتتقابل مع صفتين من صفات الجمال ، فصفة : « شديد العقاب » تتقابل مع صفتى : « غفور رحيم » ؛ لأن كل الناس ليسوا أخياراً ، وكل الناس ليسوا أشراراً ؛ لذلك جاء للأخيار بما يناسبهم من المغفرة والرحمة ، وجاء للأشرار بما يناسبهم من شدة العقاب ، وغلبت رحمته ومغفرته غضبه وعقابه ، ونلحظ ذلك من مجىء صفة واحدة من صفات الجلال : (شديد العقاب) ويقابلها صفتان من صفات الجمال وهما : (غفور رحيم) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

الرسول هو المبعوث من المرسِل الحق سبحانه إلينا نحن العباد . والحق سبحانه هو الفاعل الأول ، المطلق الذى لا فاعل يزاحمه ، والمفعول الأول بالرسالة هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمفعول الثانى هو نحن . وهناك فى النحو المفعول معه ، وهناك أيضا المفعول له ، والمفعول فيه ، والمفعول به ، وأيضا يوجد المفعول إليه والمثال على المفعول إليه قوله تعالى :

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة النحل)

وفيه أيضا المفعول منه . والمثال على المفعول منه هو قوله الحق :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

« قومه » هى مفعول منه . لأنه اختار من قومه سبعين رجلا ممن لم يعبدوا العجل ليعتذروا عمن عبد العجل ويسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء .

إن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هى البلاغ (ما على الرسول إلا البلاغ) ، أما تنفيذ البلاغ فهو دور المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أدوْها فلهم الجنة ، وإن لم يؤدُّوها فعليهم العقاب . وأراد الحق أن يكون البلاغ من رسوله مصحوبا بالأسوة السلوكية منه صلى الله عليه وسلم ؛ فالرسول يبلغ وينفذ أمامنا ما بلغ به حتى نتبعه ، ولذلك قال الحق :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

وهذا ما ينقض ادعاء الألوهية لبشر . فلو كان هناك إله رسول لقال الناس : كيف نتبع هذا الرسول وله من الصفات والخصائص ما يختلف عن نحن البشر ؟ إن الرسول لا يستقيم ولا يصح أن يكون إلها لأنه هو الأسوة والقدوة للمرسل إليهم . إنه يصلى ويصوم ويزكى ويحج ويفعل غير ذلك من الأفعال ، ويأمر مَن أرسل إليهم أن يتبعوه فيما يفعل ، فلو كان إلها فإن المرسَل إليهم ـ وهم البشر ـ لا يقدرون على أن يفعلوا مثل ما يفعل ؛ لأنه إله وطبيعته تختلف عن طبيعتهم ولذلك لا يستطيعون

التأسى والاقتداء به، فالأسـوة لا تتأتى إلا إذا كان الرسول من جنس المرسل إليهم .. أى يكون بشراً بكل أغيار البشر .

والحق سبحانه قال :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) ﴾ (سورة الإسراء)

أى أن البشر تساءلوا ـ جهلاً ـ عـما يمنع الله ـ سبحانه ـ أن يرسل لهم رسولاً من غير جنس البـشر، ولماذا أرسل لهم رسولاً من جنسهم البـشرى ؟ وهنا يأتى الأمر من الله سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ (سورة الإسراء)

وبهذا يبلغ الحق رسله ضرورة إبلاغ الناس أن الرسـول لهم لابد من أن يكون من جنس البـشـر ؛ لأن الملائكة لا يمشـون مطمـئنين فى الأرض، ولو جـاء الرسل من الملائكة لقال البشر : لن نستطيع اتباع ما جاء به الملائكة لأنهم لا يصلحون أسوة لنا ؛ لأنهم من جنس آخر غير جنس البـشر، ثم إن الملائكة من خلق الغيب، فكيف يبعث الله للبـشر هذا الغـيب ليكون رسولاً ؟ ولو حـدث ذلك فلا بد أن يجـعله الحق فى صورة بشرية .

ففى آية أخرى يقول الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ (سورة الأنعام)

إنهم طلبـوا أن ينزل الله عليهم مَلَكاً، ولو اسـتجاب الله لهم وأرسل رسـوله ملكاً لتجسد المَلَك فى صورة بشرية، وهم من بعـد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون، عندئذ يحق عليهم عذاب الله ويهلكهم . إذن فمـهمة الرسول هى البلاغ ولنا فيه الأسوة .

وتتابع الآية : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » كأنه سبحانه وتعالى يحذرنا من أن نأخذ شكل الإيمان دون أن نؤمن حقيقة ؛ لأن الأمر الشكلى قد يجوز على أجناس البشر أن ينخدعوا فيه، ولكن الله ينظر إلينا بقيوميته، فسبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم. وفى هذا القول تحدّ للمنافقين من أنه سبحانه سيحاسبهم، فإن كتم الإنسان الكفر فى قلبه وأظهر الإيمان الشكلى، فسوف ينال عقاب الله، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة المؤمنين أن يحكموا على ظاهر الأمر وأن يتركوا السرائر لله .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا عن أن نحكم بكفر إنسان أعلن الإيمان ولو نفاقاً. وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم أنه بشر، وعرف أن البشرية محددوة القدرة. ولذلك قال : «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ليأخذها أو ليتركها »[(١)].

هكذا يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نظن فيه قدرة فوق قدرة البشر وعندما قتل صحابى رجلاً أعلن الإيمان قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هلا شققت عن بطنه فعلمت ما فى قلبه »[(٢)] إذن فنحن لنا الظاهر، أما السرائر فأمرها موكول إلى الله . ولذلك يقول الله : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . ونعلم أن ظاهرة النفاق تعطى للمنافق حقوق المسلم الظاهرة الموقوتة بحياته وزمنه، ولكن الباقى فى الحياة الأخرى طويل ينال فيه جزاء ما أبطن من كفر . والكتمان غير الإخفاء . فكتم الشىء يعنى أن الشىء ظاهر الوضوح ولكن صاحبه يكتمه، أما الإخفاء فهو ما يدور بالخواطر، ويمكن أن يخفيه الإنسان، ولكنه مع مرور الوقت لا يستطيع ذلك، فالشاعر العربى يقول :

ومهما تكُنْ عندَ امرىء من خليقةٍ
وإن خالها ، تخفى على الناس تُعْلَمِ

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .
(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد

ويقال : يكاد المريب أن يقول خذونى .

ومادام الحق يعلم كُلّ ما يبدى البشر وكل ما يكتمون ، وهو شديد العقاب ، وغفور ورحيم ، ويجازى على الحسنة بعشر أمثالها ، ويجازى على السيئة بمثلها ، فماذا علينا أن نفعل ؟ يأتينا القول الفصل فى أمر الله لرسوله أن يخبرنا :

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

إذن فالخبيث لا يستوى أبداً مع الطيب ، بدليل أن الإنسان منا إذا ما ذهب لشراء سلعة فهو يفرز البضاعة ليختار الطيب ويبتعد عن الخبيث . وهذه قضية كونية مثلها تماماً مثل عدم تساوى الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور . ويأتى الحق إلى المحسات ليأخذ منها ما يوضح لنا الأمر المعنوى . ولذلك يحذرنا أن نغتر بكميات الأشياء ومقدارها ، فإن الطيب القليل هو أربى وأعظم وأفضل من الكثير الخبيث . والأمر الطيب قد يرى الإنسان خيره فى الدنيا ، ومن المؤكد أن خيره فى الآخرة أكثر بكثير مما يتصور أحد ؛ لأن عمر الآخرة لا نهاية له ، أما عمر الدنيا فهو محدود .

وكثير من الناس عندما يحضرون قسمة ما ، فكل واحد يرغب فى أن يأخذ لنفسه النصيب الأكبر ؛ لأن الإنسان تغريه الكثرة . وهذا الطمع يشيع الخبث فى جميع ما يأخذه الطامع ، فالذى يطمع فى حفنة من قمح ـ على سبيل المثال ـ تزيد على حقه ، فهو يفسد حياته بهذا الشىء الخبيث . وذلك كخلط الماء الطاهر بماء نجس فتغلب النجاسة على الماء . إذن فلا يصح أن نحكم على الأشياء بكميتها وقدْرها ، ولكن يجب أن نحكم على الأشياء بكيفيتها وصفتها وبعمرها فى الخير .

والمثال الذى لا أمل من تكراره هو التلميذ الذى يكد لمدة عشرين عاماً فهو يتخرج إنساناً له مكانة لائقة ، أما التلميذ الذى يقضى عشرين عاماً فى اللعب واللهو فهو يتلقى وينال مستقبلا فاشلا مؤلما . إذن ، على كل منا أن يقدر النفعية بديمومتها ، ولا يغتر بكثرة الخبيث .

والمثال يتكرر فى حياتنا ولا بد أن نضعه أمام أعيننا لنرعى الله ولا ننساق كما ينساق كثير من الناس إلى هلاكهم ، فبعض الناس لا يرتضون قسمة الله فى مواريثهم ، فيعطى بعضهم للذكور ولا يعطى للإناث . أو يقلل من نصيب الإناث . ونقول لمن يفعل ذلك : أنت لا تعلم ماذا تفعل . ولو أن ابنك الذكر يعلم أن يد الله فى الأشياء لقال لك : ارحمنى ولا تزدنى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

ولذلك يجب أن يتنبه الناس إلى أن قسمة الله هى أعدل قسمة ، وإياك أن تظلم ابناً لك أو قريباً بزيادة فوق ما قدره الله له ؛ لأن هذا عين الظلم . فإن فاتت على المورِّث وهو حى نقول لمن أخذ : احذر ولا تقبل ما هو فوق شرع الله وأعِدْ ما هو فوق حقك . افعل ذلك برجولة الإيمان . وإياك أن تظن أن الذى سيديم الستر لأولادك هو هذه الزيادة التى ليس لك حق فيها ؛ لأنك بهذه الزيادة ستقطع الأرحام وتغرس بذور الكراهية والبغض .

ولو نظرت إلى هذه المسألة وأقمتها على ما شرعه الله فستجد أن الرزق سيفيض عليك من كل جانب مادمت قد راعيت حق الله فى إرادته التى حكم بها لينشأ الاستطراق الأسرى وتظهر العدالة الربانية ؛ لذلك يجب ألا يجترىء أحد على قسمة الله ؛ لذلك أقول لكل من يقرأ هذه الكلمات ويفكر فى الاجتراء على قسمة الله : تُب إلى الله ولا يصح أن تشوه استقامتك الإيمانية . وإياك أن يظن إنسان أنه كأب يمكنه أن يحتاط لأبنائه . فكثيراً ما رأينا أناساً تركهم أهلهم أغنياء وصاروا فى عوز وفاقة وفقر ، ورأينا أناساً تركهم أهلهم فقراء ، وأفاض الله عليهم من رزقه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن فعلى المؤمن أن يحذر الكثرة إن كان بها شيء خبيث . ولنا العبرة فى الحكاية التى حدثت مع أبى جعفر المنصور حينما بويع للخلافة ، وذهب الناس يهنئونه بإمارة المؤمنين ، ودخل عليه سيدنا مقاتل بن سليمان وكان أحد الواعظين .

هنا قال أبو جعفر لنفسه : جاء ليعكر علينا صفو يومنا ، سأبدأه قبل أن يبدأنى وقال له : عظنا يا مقاتل . قال مقاتل : أعظك بما رأيت أم بما سمعت ؟

ذلك أن السمع أكثر من الرؤية ، فالرؤية محدودة ومقصورة على ما تدركه العين ، لكن السمع متعدد ؛ لأن الإنسان قد يسمع أيضاً تجارب غيره من البشر .

قال أبو جعفر : تكلم بما رأيت . قال : يا أمير المؤمنين ، مات عمر بن عبدالعزيز وقد ترك أحد عشر ولداً ، وخلف ثمانية عشر ديناراً كُفن منها بخمسة ، واشتروا له قبراً بأربعة ، ثم وزع الباقى على ورثته . ومات هشام بن عبدالملك ، فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع ثمانين ألف دينار ، غير الضياع والقصور . كان نصيب الزوجات الأربع هو ثلاثمائة وعشرون ألف دينار ، وهذا هو ثُمن التركة فقط . والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت بعينى هاتين فى يوم واحد ولداً من أولاد عمر بن عبدالعزيز يحمل على مائة فرس فى سبيل الله ، وولدا من أولاد هشام بن عبدالملك يسأل الناس فى الطريق .

إذن فعلى كل منا أن يعرف أنه لم يدخل الدنيا بثروة ، وعليه أن يتأدب مع الله ويرعى حق الله ، ولا يتدخل فى قسمة الله .

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

على المسلم - إذن - أن يستحضر كل ملكاته العقلية حتى يميز الخبيث من الطيب ويرفض الشيء الخبيث ؛ لأننا لو تدبرنا الحكم بعقولنا لوصلنا إلى أن حكم الله هو الحكم الحق العادل .

(لعلكم تفلحون) والفلاح - كما نعلم - مأخوذ من أمر محس وهو فلح الأرض ، فالإنسان يأخذ حبة قمح ويزرعها فتعطيه سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . والحق سبحانه يسمى لنا كل عمل الآخرة بالفلاح ؛ لأن الكلمة لها وقعها الجميل ، فإذا كانت الأرض ، وهى مخلوقة من مخلوقات الله بما تحتويه من كل العناصر اللازمة للزرع واللازمة لكل حياة ، هذه الأرض تعطينا لقاء حبة قمح سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟ فاتق الله أيها المسلم ولا تتدخل فى قسمة الله ، وضع أمامك هذا التوجيه الحكيم الذى ورد فى الأثر : شركم من ترك عياله بخير وأقبل على الله بشرٌ .

وعلى الأبناء الذين ابتلوا بهذا أن يراجعوا الأمر بنخوة إيمانية ؛ لأن الأب حينما أحب ابناً له وزاد له فى الميراث كان أحمق الحب ، وعلى الابن أن يحترم عاطفة الحب ، وأن يجازى الأب عنها ويرحمه ، فيعيد الأمر إلى نصابه ويعطى كل ذى حق حقه حتى لا يتعرض أبوه لعذاب النار الذى سيناله نتيجة تدخله لصالحه فى قسمة الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ
إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ



وهذا نهى عن السؤال ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « ذرونى ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه »(١) .

ونعرف أن بنى إسرائيل شددوا على أنفسهم عندما أخذوا يماطلون فى أمر ذبح البقرة ، وتساءلوا عن لونها ، وشددوا فشدد الله عليهم . ولو أنهم ذبحوا أى بقرة لكانت مقبولة منهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى جاءت البقرة الموصوفة ملكاً ليتيم، كان هذا اليتيم ابناً لرجل صالح وكانت له عِجْلة فأتى بها موضعا كثير الشجر والمرعى وقال : اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر وعندما ساوموا اليتيم على ثمنها باعها لهم بملء جلدها ذهباً .

وقد شدد بعض الناس فى سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبدالله بن حذافة بن قيس السهمى الذى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أبى ؟

فأجاب رسول الله : أبوك حذافة . ولو فرضنا أن هذا السائل كان ينسب لغير أبيه ألا يكون فى ذلك فضيحة لأمه وقد قالت له أمه : ما رأيت أعق منك قط ، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس .

لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس فى الأمور التى تؤدى بهم إلى المشقة والتعب وتسىء إليهم وتقبل الحق من رسوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشرعية مثل سؤالهم عن الخمر والأهلة والحيض والشهرالحرام وغيرها . أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق فى شأنها : « عفا الله عنها والله غفور حليم » .

ذلك أن البعض استمرأ السؤال وكأنه يمتحن النبى صلى الله عليه وسلم . ولذلك جاء الأمر بألا يتعمد المؤمنون السؤال عما ستره الله عنهم كى لا ينفضح عرضهم . « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » فإن نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها . وإن لم تأت الإجابة فلا يقولن أحد : إن النبى ليس عنده جواب . أو هى سؤال عن الأشياء التى اقترحوها ادعاء منهم أنها تثبت صدق النبوة فقد حكى الله عنهم :

(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد .

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا
أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ
وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا
بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد ظهر من هذا القول سوء النية المبيتة منهم ، فالرسول لن يأتى بالآيات ، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلف به ؛ لأن الرسول لا يختار ما يُؤتى به من آيات ، ولكن الحق هو الذى يرسل الآيات المناسبة .

ولذلك يقول الحق :

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ۝١٠٢ ﴾

والحق لم يرسل هذه الآيات رحمة بمن سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عنها فقد سأل قوم عن ناقة وعقروها فأبادهم الله . وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة ونزلت عليهم وتوعدهم الحق بعدها إن لم يؤمنوا . وكانت سنة الله مع خلقه إن اقترحوا هم آية ولم يصدقوها فإن الحق يهلكهم أو يعذبهم . ويعطى سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وسلم ضماناً :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن فالأسئلة التى سألوا عنها لم يجبهم عنها لأنه سبحانه قد عفا عنها . والعفو - كما نعلم - مأخوذ من عفّى الأثر أى أذهب الأثر . وعفو الله من مغفرته ورحمته .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وهذه الآية جاءت فى السورة التى أحل الله فيها بهيمة الأنعام ، وحرّم منها ما حرّم . فهو سبحانه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يستبقى حياته من قوت ، وما يستبقى نوعه بالتزاوج . وإذا كان الحق هو الذى جعل الإنسان خليفة فى الأرض فقد أعدّ له كل هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعدّ سبحانه لخلقه الأرض والسماء والماء والهواء ، ومما ذخر وخبّأ وأوجد فى الأرض من أقوات لا تنتهى إلى يوم القيامة .

ولنا أن نلتفت إلى فارق مهم بين « الخلق » ، وبين « الجَعْل » . فالخلق شىء ، والجعل شىء آخر . والخلق هو إيجاد من عدم . والجَعْل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته فى الحياة . فخلق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخلق والإيجاد له سبحانه . وعلينا - نحن الخلق - أن نخصص كل شىء لمهمته فى حياته التى أرادها الله ، أى أن نترك « الجعل » لله ولا نتدخل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير - على سبيل المثال - ليأكل من القاذورات وليحمى الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة ، وعلى الإنسان - إذن - أن يخصص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوّله إلى غير مهمته كأن يأكله مثلا ، لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضر بالإنسان الذى أراده الله سيداً مستخلفاً فى الكون .

وأبلغ سبحانه الناس أنه قد أحل أشياء وحرّم أشياء ، وعلى الإنسان أن يرضخ لما حلله الله فيقبل عليه ، وأن يرضخ بالابتعاد عما حرّم الله . والخالق سبحانه وتعالى هو الذى « خلق » وهو الذى « جعل » وهو القائل :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة المائدة)

وهو القائل :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نجعل له أنداداً :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد ، فلا يصح أن تجعلوا له أنداداً ؛ لأن ذلك عبث . ويثبت لنا سبحانه أن قضية الفساد فى الأرض تنشأ من تعدى الناس إلى الجعل المخلوق لله فيحولونه إلى غير ما خلقه الله له .

والخَلْقُ فى حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيما هى مخصصة له . ومثال ذلك : أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن . وتستقبل من صانع الصابون قالباً من الصابون ، ثم تجىء بالجبن والصابون إلى المنزل ، فتخبر أهل البيت بأن الجبن للأكل والصابون للغسيل ، ويطيع الجميع هذه التوجيهات . لكن إن استخدم أحد الصابون للأكل والجبن للغسيل يحدث إفساد فى صحة أفراد الأسرة . وكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى لنا أبناء من أصلابنا ، فكيف نأخذ أبناء من غير أصلابنا لنجعلهم أبناء لنا ؟ إن هذا خبط فى الجعل .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

إنّ الدعيّ هو فى حقيقة أمره من غير صلبك ، وزوجتك ليست أمّاً له ، فكيف تجعله ابنا لك ، وتمكنه من أن يجلس فى حجر امرأة غير أمه ويشب على ذلك وينظر إلى غير محارمه على أن ذلك حلال ومباح له ، إنه بذلك يفقد التمييز بين الحلال والحرام ؛ لذلك فالتبنى إفساد فى الجعل .

إن كل فساد ينشأ فى الكون حينما نجعل مخلوقاً لله فى مهمة غير تلك التى جعلها الله له . والحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيته ، وما يحفظ نوعه ، فعلينا أن نتبع ما يأمر به الحق من اتباع ما هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام . وإن قال قائل : ولماذا حرّم الله بعض الأشياء التى خلقها ؟ ونقول : إن الذى خلقها جعلها لمهمة غير التى يريد الإنسان أن يوجهها له ، ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير .

والإنسان منا إذا ما رأى صورة من معيشة الحيوانات فى الغابة . يتعجب ، ففضلات حيوان هى غذاء لحيوان آخر . وسم الثعبان هو حماية وعلاج . ونعرف أن الإنسان يستخلص سم الثعبان ليستخرج منه علاجاً لبعض الأمراض ولقتل بعض الجراثيم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾

(سورة يونس)

كيف إذن نجعل من أنفسنا مشرعين نحلل الحرام ونحرم الحلال ؟ إن الله الذى خلق كل شىء لم يمنحنا الإذن بذلك . وعلينا أن نسلم بأن كل شىء مخلوق لمهمة

فلا يصح أن نوجه شيئا إلى غير مهمته . وتوجيه أشياء إلى غير ما جعلت له أنتج آثاراً ضارة ، ومثال ذلك استخدامنا لمبيدات الحشرات في الحقول ، تلك المبيدات أبادت الضار في نظرنا ، وأبادت النافع أيضاً . وعلى الإنسان - إذن - أن ينتبه جيداً فلا يساوي بين الحرام والحلال ، وأن ينتبه تماماً فلا يتعدى الجعل المخلوق لله . يقول سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

والبحيرة هي الناقة التي تُشق أذنها كعلامة على أنها محرّمة فلا يتعرض لها أحد ، لا تُرد عن مرعى ، ولا تُرد عن ماء ، ولا يُشرب لبنها ، ولا يُركب ظهرها ، ولا يُجز صوفها ؛ لأنهم قالوا : نُتجت خمسة أبطن آخرها ذكر . و« السائبة » وهي الناقة التي يقدمها الرجل إن برىء من مرضه أو قدم من سفره كنذر سائب ، فلا يربطها ، وتأكل كما تريد ، وتشرب ما تريد ، وتنام في أي مكان ، ولا أحد يتعرض لها أبداً ، وقد سميت « سائبة » بمعنى مأخوذ من الماء السائب . ونعرف أن صفة الماء وطبيعته الأساسية هي الاستطراق ، فإن سقط الماء على قمم الجبال فهو يملأ الوديان أولاً ، ثم يصعد إلى الأعالي ، هكذا يكون استطراق الماء ما لم يتحكم فيه الإنسان بإقامة السدود والمضخات وشبكات توزيع المياه .

والوصيلة هي الناقة التي تصل أخاها ، فالناقة عندما تحمل وتضع المولود ، هنا ينظر أصحاب الناقة إلى جنس المولود ، فإن كان ذكراً أكلوه ، أما إن كان المولود أنثى فهي لهم يستبقونها لأنها وعاء إنجاب لنتاج جديد ويكفي فحل واحد لإخصاب عشرات الإناث . فإن نتجت الناقة في بطن واحد ذكراً وأنثى فإنهم لا يذبحونها ويقال : « وصلت الأنثى أخاها » فحرمته علينا .

وفي ريفنا المصري نجد الأطفال يتمنون أن يأتي وليد الجاموسة أو البقرة ذكراً حتى يأكلوا من لحمه وحتى يشربوا من لبن الجاموسة أو البقرة كما يهوون . ذلك أن الطفل

ينظر إلى مصلحته المباشرة ، أما الكبار فهم يتمنون دائما أن يكون وليد البهيمة أنثى ؛ لأن الأنثى وعاء لنتاج جديد .

والـ « حام » هو الفحل الذى يُحمى ظهره من أن يُركب ، ويتركونه لينطلق كما يريد . وهو الذى لقح عشرة أجيال من الإناث ، أو هو الذى نتجت من صلبه عشرة أبطن . وكان من الضوابط لهذه العملية أن يعرفوا أن حفيد هذا الفحل - ابن ابنه - يمكنه أن يلقح .

وكل هذه المسائل : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، هى من اختراعات أهل الكفر الذين يفترون على الله ، فالحق سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام ليستمتع الإنسان بأكلها وشرب لبنها وتسخيرها إلى ما يفيده .

ومعنى « يفترى الكذب » أى أنه يختلق كذباً ويدعيه ليطرأ به على صدق ليخفيه فالكذب ستر لحقيقة كانت قائمة . والحقيقة القائمة منذ أن خلق الله الخلق أن هذه الأنعام جميعها مسخرة لخدمة الإنسان ، وأبلغ سبحانه آدم بمنهجه ، وكان من المفروض أن يبلغ كل جيل الجيل الذى يليه ، لكن طول الزمن والغفلة هما السببان وراء نسيان الناس لبعض الأحكام ؛ لذلك بعث الله الرسل ليذكروا الناس بالمنهج ، وليزيلوا الكفر عن وعى الناس ، فالكافرون أناس ستروا منهج الله ، وستروا البلاغ عن الله ، وهم بذلك يفترون الكذب على الله .

ومثال ذلك قصة دخول الأصنام إلى الكعبة ، فقد سافر رجل اسمه عمرو بن لُحَىّ إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنما يقال له : « هبل » إلى مكة ، وكان هو أول من أدخل الأصنام إلى مكة . وكما فعل عمرو بن لُحَىّ فعل غيره بوضع قوانين وقواعد لم يأت بها الله ، كالوصيلة والبحيرة والسائبة والحام . وكان ذلك افتراء على منهج الله وتغييراً لمنهج الحق ، وعلى فرض أنه لا منهج قد وصلهم من الله ، ألم يكن من ضرورة التعقل أن ينظروا فى أمر هذه البدع والضلالات ؟

إن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع العقل من أن يصل إلى حقيقة كونية سليمة . ولكن قد يجهد العقل ويتعب بالتجربة الطويلة حتى يصل إلى حقيقة ما . لذلك أراد

سبحانه حماية الناس من شقاء التجارب القاسية فأنزل منهجه ليحدد الحرام من الحلال . قال سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ولقائل أن يقول : لماذا إذن وُجد فى العالم أديان أخرى . كاليهودية والنصرانية ، ولماذا إذن هناك ملاحدة مادام الله قد قرر ألا يوجد مع الإسلام دين آخر ؟

ونقول : أنت لم تفهم مراد الآيتين الكريمتين ، إن الحق سبحانه يقرر مرة أن الدين سيظهر ولو كره المشركون ، ومعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين ، وأهل ديانات أخرى وسيظهر الإسلام عليهم ، ويجعله الله هو السائد بالحجة والبرهان وبشهادة الكافرين والملحدين والوثنيين أنفسهم ؛ لأن أمور الحياة ستتعبهم فى كل قضايا حياتهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المتاعب إلا بأن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هى التى ستخلصهم من مشكلاتهم ، ولجوؤهم إلى أقضية تتفق مع الإسلام -مع كفرهم بالإسلام- هو شهادة قوية على أن الإسلام جاء دين الفطرة ، ودين العقل ، وأن الكل سيحتاج إليه قهراً عنه . ومن لم يأخذه ديناً فسيضطر إلى أن يأخذه نظاماً .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذيل الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها بقوله عز وجل : « وأكثرهم لا يعقلون » فلأنه سبحانه ينبهنا إلى أنهم لو تعقلوا الأمر لما جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من المحرمات عليهم .

ولنا أن نتساءل : أجعلتم هذه الأشياء حراماً تكريماً لها أم زهداً فيها ؟ . فإن كان هو الزهد ، فمعنى ذلك أنهم أخرجوها عما خلق الله ؛ لأن الله خلقها لنأكل لحمها

وننتفع بها . وإن كان هو التكريم ، فهل من التكريم أن يترك الإنسان الحيوان الذى خدمه دون حماية من ذئب ، ودون طعام يعده له ويتركه يلغ فى أرض الغير؟ . إن هذا أسلوب يدل على عدم الوفاء للحيوان الذى خدم الإنسان ، ومثل هذا السلوك لا يستبقى حياة هذا الحيوان ، بل يعرضها للخطر ، لهذا يأبى العقل السوىُّ هذا الزهد وذلك التكريم . فإن كان عمرو بن لُحَىٍّ أو غيره قد جاءوا بأشياء وتقاليد لم يجعلها الله ، فعلينا أن نشكر الحق سبحانه لأنه جاء بالإسلام ليعدل من هذه المسائل .

والمدقق للنظر فى آيات القرآن يجدها تمثل برناجاً مطمْئِناً لحياة الإنسان على الأرض ، وكأنها حاسب آلى يضبط إيقاع حركة الإنسان فى الأرض بدقة تتفوق بكل المقاييس على دقة أى حاسب آلى من صنع البشر ، ذلك المسمى « كمبيوتر » . إن هناك « كمبيوتر » إلهياً يهدى الإنسان من أن يضل أو يُضل ، فالسماء تعدل للإنسان سلوكه إن ذهب بعيداً عن الصراط المستقيم . ولا يقولن إنسان : إنما أنا أتبع ما كان عليه آبائى . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

بل على الإنسان إن يلتفت إلى أن أول تغيير لمنهج الله كان من أحد الآباء الذين أصابتهم الغفلة . وقول الإنسان : إنما أتبع ما كان عليه آبائى ، هو قضية منقوضة ؛ لأن الذى غيّر أول تغيير لم يقل :(حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) لأنه لم يقلد أباً له ، وأيضا فمن المحتمل أن الأباء لم يعقلوا ما غيروه من منهج الله ولم يهتدوا إلى الحق .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :